أَوْقَافُ النِّسَاءِ وَأَثَرُهَا فِي نَهْضَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْتَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ (جَامِعَةُ الْقَاهِرَةِ نَمُوذَجًا)

د. فكري عبد المنعم النجار و أ. فاطمة عبد الفتاح إسماعيل الدراجيني

مقدمة:

الحمد لله الذي وفق للوقف من هداه، وعمر دنياه وأخراه، وجعل همه ما يبتغيه مولاه، وسعيه لما يصلح دنياه وأخراه، والصَلاة والسَلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، فإن الوقفَ صانعُ الحضارة الإسلامية، وثمرة من ثمار شجرة الإسلام المباركة، وباب عظيم من أبواب الفقه، ودعامة أساسية للاقتصاد والتنمية، وضرورة من ضرورات العصر الذي نعيشه؛ إذ قد اتسعت الفجوة بين الفقراء والأغنياء. ويسهم الوقف الخيري والتكافل الاجتماعي مع أداء شرع الله من الزكاة في تعمير الأرض، وانتفاع البرايا، أو في تضيق أو طمس معالم الفجوة بين الفقراء والأغنياء، أو التقارب بين سائر الطبقات، فتسعد الأمة، ويعيش المجتمع في محبة وهناء، وأمن وأمان وسلام.

ويعظم أثر هذا الوقف في حياتنا المعاصرة وعلى مدى التاريخ عندما يستثمر في التعليم، أو يرتبط بقضايا والتنوير والمعرفة؛ إذ يمتد نور التعليم وأثره الوضاء إلى جميع أفراد المجتمع وفئاته. وقد شاركت المرأةُ الرَّجلَ ونافسته -منذ عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم- في الجود والعطاء والسخاء من خلال الأوقاف الكثيرة في المجالات كافة، "وكانت أمهات المؤمنين من أوائل مَن تأسى بالمصطفى -صلى الله عليه وسلم- فأوقفن الأوقاف في حياته وبعد مماته، فأوقفت، فأوقفت أم المؤمنين عائشة دارًا اشترتها، وابتاعت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب -رضي الله عنها- حُليًا بعشرين ألفًا، فحبسته على نساء آل الخطاب، وهو أول وقف في الإسلام من هذا النوع، كما تذكر المصادر أنَّ أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله عنها- قد أوقفت أوقافًا، وكذلك فعلت أم المؤمنين أم حبيبة -رضي الله عنها-، وأوقفت أيضًا فاطمة بنت الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقفًا في المدينة المنورة، وحذت حذوها أسماء بنت أبي بكر زوج الزبير بن العوام -رضي الله عنها-"١.

وامتدادًا لهذا النهج الإسلامي المبارك فقد أسهمت المرأة العربية المسلمة عامة، والمصرية خاصة، بحظ وافر على مدى العصور في إبراز الوجه الحضاري المشرق لها ولأمتها من خلال الأوقاف والأحباس التي خصصتها للمصلحة العامة، وقضايا التنمية، والتعليم. وسيعرض البحث بعض جهود الأميرة فاطمة بنت إسماعيل في وقفية بعض أراضيها لإنشاء جامعة القاهرة، وأثر إنشاء هذه الجامعة في نهضة اللغة العربية والتاريخ الإسلامي. وهذا ما نتعرَّفه في المباحث الآتية.

المبحث الأول
الوقف: مفهومه، ونشأته وتطوره، وأقسامه

١- مفهوم الوقف لغةً واصطلاحًا:

مصطلح (الوقف) من المصطلحات المعروفة لدى أئمة الأداء والقراءات القرآنية ويكون مقترنًا حينئذٍ بمصطلح الابتداء، وهو معروف أيضًا لدى النحويين والصرفيين، والعروضيين، ومع هذا فإن طبيعة البحث تقتضي المبادرةَ إلى معرفة الأصل الاشتقاقي، والمفهوم الاصطلاحي للوقف؛ لأن "الشيء قبل حده مجهول"٢.

وفيما يتعلق بمفهوم (الوقف) لغةً نجد أن المعاجم العربية تطالعنا بآراء كثيرة لأئمة اللغة في الباب الصرفي الذي ينتمي إليه الفعل (وَقَفَ)، ومعظمهم يجمعون على أنَّ هذا المصطلح يدور حول معنى: الكف، والترك، والمنع، والإقلاع، والحبس، والسكت، والقطع، والثبات، والاحتباس، والتمكث، أي السكون من الحركة. كما أشاروا إلى أن (الوقف) مصدر للفعل الثلاثي المتعدي. و(الوقوف) مصدر للفعل اللازم. أي: وقفته وقفًا، فوقف وقوفًا٣.

ويشتهر مصطلح الوقف في الفقه الإسلامي أكثر منه في الدراسات اللغوية٤. ويُعَرَّف الوقف في الفقه الإسلامي بأنه: "حبس العين عن أن تملك لأحد من العباد، والتصدق بمنفعتها ابتداءً وانتهاءً، أو انتهاءً فقط". ومن أجمع تعريفات الوقف "أنه حبس العين، وتسبيل ثمرتها، أو حبس عين والتصدق بمنفعتها"، أو هو تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة٥.

والأصل في هذا الوقف قوله تعالى: "لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" [آل عمران: ٩٢]، فإن أبا طلحة الصحابي - رضي الله عنه - [زيد بن سهيل، ت ٣٤هـ/٦٥٤م] لما سمع هذه الآية رغب في وقف بئر هي أحب أمواله إليه. وفي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه -: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"٦، والصدقة الجارية محمولة عند العلماء على الوقف. وروي في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: أَصَابَ عُمَرُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، فَأَتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَاسْتَأْمَرَهُ فِيهَا، فَقَالَ: أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ قَالَ: " إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا " قَالَ: فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ: " أَنْ لَا تُبَاعَ، وَلَا تُوهَبَ، وَلَا تُورَثَ "، قَالَ: فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ: " فِي الْفُقَرَاءِ، وَالْقُرْبَى، وَالرِّقَابِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَابْنِ السَّبِيلِ وَالضَّيْفِ، لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ يُطْعِمَ صَدِيقًا، غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ فِيهِ "٧.

من خلال التأمل في مفهوم الوقف لغة واصطلاحًا نلاحظ أن المعنى المعجمي يكون منطلقًا وأساسًا – في كثير من الأحيان – للمعنى الاصطلاحي، وهذا المعنى الاصطلاحي قد يتعدد بتعدد العلوم. فدلالة الوقف عند علماء القراءات تختلف عن دلالته عند النحويين والصرفيين، وعند العروضيين، وعند الفقهاء، وهذا التعدد الدلالي للمصطلح يفيد في عدم وقوع اللبس، فلا يمكن إطلاق الوقف بمفهومه الاصطلاحي عند العروضيين علي الوقف عند الفقهاء أو القراء أو النحويين والصرفيين، وهكذا...

٢- نشأة الوقف وتطوره:

يعتبر الوقف من أهم ميادين البر والخير، وأفسحها مجالاً، وأعظمها أجرًا وأبقاها أثرًا. ويعتبر أيضًا مظهرًا مهمًّا من روائع الحضارة العربية الإسلامية. فقد كان للوقف دور بارز في المجتمعات الإسلامية عبر العصور المختلفة، حفاظًا على هويتها، وسندًا لجهادها، وسدًا لحاجتها، وتوثيقًا لعرى الإخاء والتواصل بين أفرادها وأجيالها، وتجسيدًا لما دعا إليه الدين من العواطف الإيجابية النبيلة والتكافل الاجتماعي الكريم.

وقد كانت نشأة الوقف متزامنة مع نشأة الدولة الإسلامية، ونستدل على ذلك من خلال الآيات القرآنية التي تدعو إلى الخير والإحسان، والإنفاق في سبيل الله، قال تعالى: "وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [الحج: ٧٧]، وقال: "إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ" [النحل: ٩]، وقال: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ" [آل عمران: ٩٢]، وغير ذلك الكثير من الآيات القرآنية التي أكدت أن فعل الخير يمثل شعيرة من شعائر الإسلام٨.

كما أن هناك العديد من الأحاديث النبوية التي تشير إلى أن الوقف كان موجودًا منذ عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ومنها ما أورده الإمام الخصاف في كتابه "أحكام الأوقاف"، ومنه: ما رواه المسور بن رفاعة قال: "قتل مخيريق على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من مهاجر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأوصى إن أصيب فأمواله لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقبضها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتصدق بها". وذكر المسور أنها كانت أول حبس (وقف) في الإسلام٩. كذلك قوله صلى الله عليه وسلم:: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"١٠. وقد فسر العلماء الصدقة الجارية بالوقف.

وقد انتهج الصحابة رضوان الله عليهم نهج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وساروا على هديه. فقد رُوي أن أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- حبس رباعًا له كانت بمكة وتركها. كذلك فقد أوقف عمر بن الخطاب -كما مرّ آنفًا- خير أراضيه على أقاربه، والفقراء، وإكرام الضيف وتحرير العبيد. وذكر الواقدي أن عليّ بن أبي طالب -كرم الله وجهه- استصلح أرضًا له في ينبع، أقطعه إياها عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فانفجر فيها الماء، فتصدق بها عليّ على الفقراء والمساكين وفي سبيل الله وابن السبيل القريب والبعيد في السلم والحرب١١.

وكانت أمهات المؤمنين -رضوان الله عليهن- من أوائل من تأسى بالنبي -صلى

الله عليه وسلم- فأوقفن الأوقاف في حياته وبعد مماته، فأوقفت أم المؤمنين عَائِشَةَ، وَأَسْمَاءَ أُخْتِهَا، وَأُمِّ سَلَمَةَ، وَأُمِّ حَبِيبَةَ، وَصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ. كما أوقف غيرهم من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومنهم الزُّبَيْرِ وَمُعَاذ بْنِ جَبَلِ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ وَأَبِي أَرْوَى الدَّوْسِيِّ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، كُلُّ هَؤُلَاءِ مِنْ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ التَّابِعِينَ بَعْدَهُمْ، وَتَوَارَثَ النَّاسُ أَجْمَعُونَ ذَلِك١٢.

وفي العصر الأموي تطورت الأوقاف، وتضاعفت أعدادها، وتنوعت مصارفها. فقد حرص معاوية بن أبي سفيان على توفير مياة الشرب في المدينة، وأجرى في الحرم المكي عيونًا، وأنشأ آبار المياة على الطرقات. كذلك أنشأ دار المراجل بمكة، والتي كان يُطبخ فيها طعام الحجيج وطعام الصائمين من الفقراء في شهر رمضان المبارك وقفًا في سبيل الله. ومن أبرز الوقفيات في الدولة الأموية مسجد قبة الصخرة الذي أوقفه الخليفة عبد الملك بن مروان١٣.

وقد توسع الوقف في العصر العباسي، وتعددت مجالاته، وتطور إداريًا وأصبح له ديوان مستقل، ومن أمثلة الأوقاف العباسية: المدرسة المستنصرية، والبيمارستان العضدي، وعين زبيدة في مكة. كما عمَّ الوقف كل شرائح المجتمع الضعيفة، إذ برزت في ذلك العصر الأربطة الخاصة برعاية ذوي الاحتياجات الخاصة من المعاقين وكبار السن. كما ظهر الاهتمام بالوقف الصحي من خلال إنشاء المستشفيات، وظهرت أوقاف المدارس النظامية باعتبارها نموذجًا للوقف الثقافي١٤.

وقد شهد الوقف في العصر الأيوبي نهضة شاملة بفضل دعم سلاطين وأمراء الدولة الأيوبية، لاسيما وأن الجهاد وفكاك الأسرى كان يمثل مصرفًا من مصارف الوقف في ذلك العصر. ولعل أبرز الوقفيات في ذلك العصر تحويل صلاح الدين للجامع الأزهر من وقفية تخدم التعاليم الإسماعيلية المتطرفة، إلى معقل لنشر وسطية أهل السنة والجماعة١٥. وَلما فتح الله بَيت الْمُقَدّس على يَدَيْهِ وقف الْمدرسَة الصلاحية وَجعلهَا للشَّافِعِيَّة. كذلك الأوقاف الكثيرة التي أوقفها صلاح الدين على المسجد الأقصى، والتي حولته إلى جامعة من كبريات الجامعات، مما أسهم في ازدهار الحياة الثقافية في القدس١٦.

وقد بلغ الوقف في العصر المملوكي أوج ازدهاره؛ إذ انتشرت الأوقاف، وبرز دورها في المجتمع وتنميته، وخاصة في مجال العمل المؤسسي المتكامل، وظهور حقول جديدة في الوقف كالاهتمام بالثقافة والمساجد والزوايا والربط والحرمين الشريفين الوقفية وزيادة عدد المدارس، بالإضافة إلى اللمسات المبدعة للمرأة في ذلك العصر١٧.

أما في الدولة العثمانية فقد ارتقت الأوقاف تنظيمًا، وإدارةً، وسعة انتشار، وظهرت أنواع جديدة كوقف النقود، وميلاد خط سكة حديد الحجاز الذي يربط بلاد الشام بالمدينة المنورة لخدمة الحجيج، واهتمت الدولة بالتعليم، ودعم حركة الأوقاف على المدارس. وفي مجال وقف النساء يبرز لنا ما أوقفته زوجة السلطان سليمان القانوني من رباط في مكة المكرمة يحتوي على ثمان وأربعين حجرة وسبيل ماء، واشترطت أن يسكن الرباط العلماء العابدون، والصلحاء الزاهدون. وكذلك أوقفت في مدينة القدس ما يمكن أن يقال عنه (مؤسسة خيرية تربوية دينية متكاملة)١٨.

وقد استمرت الأوقاف عبر العصور إلى يومنا هذا تخدم أنشطة المجتمع، وتسهم في تنميته، واختص جانب كبير منها لخدمة الحركة العلمية والثقافية بوجه عام، ولم تقتصر على علم واحد، أو تخصص معين، بل إنه شمل الجوانب التعليمية كافة من إنشاءات ومرافق ووسائل ونفقات المعلمين والمتعلمين وكل ما ينهض بالعملية التعليمية.

٣- أقسام الوقف:

ينقسم الوقف ثلاثة أقسام، هي١٩:

أ - الوقف الذُّرِي (الأهليّ/ الخاص): هو الذي وُقف ابتداءً على ذُرِّيَّة الواقف نفسه، أو على من أراد نفعهم من الفقراء، ثم جعله بعد ذلك إلى جهات البر والخير. وهذا يؤدي إلى حماية الأموال من المصادرة بعد الوفاة، وحصرها في ذرية الواقف. مما قد يُؤثر تأثيرًا سيئًا على خزينة الدولة؛ بسبب نمو أموال تلك الأوقاف دون أن تأخذ خزينة الدولة منها إلا العشر. ولو جعل الواقف أرضًا معينة مثلا وقفًا على جهة خيرية مدة خمس سنوات، كجمعية حفظ القرآن على سبيل المثال، ثم بعد انقضاء هذه السنوات تكون وقفًا على أولاده أو غيرهم كان الوقف خيريًا؛ إذ مدار التفرقة بينهما هو الجهة الموقوف عليها أول الأمر.

ب - الوقف الخَيريّ (العام): هو الذي وُقف ابتداءً على جهة من جهات البر والخير التي لا تنقطع، فينفق من ريعه على الفقراء والمساكين واليتامى، وبناء المساجد والتكايا والزوايا والقناطر والمستشفيات والمدارس ومعاهد العلم والجامعات وكتب العلم النافع والقرآن الكريم وكتب الفقه وغير ذلك من وجوه البر والإحسان؛ إذ لا يجوز وقف شيء فيه معصية كالخنزير مثلا، أو يتلف بعد وقت قصير كالشموع مثلا، وغير ذلك. ولا شك أن الأوقاف التي خصصت لإنشاء جامعة القاهرة، وكلياتها، وما يتعلق بذلك من خدمة اللغة العربية والتاريخ تنتمي إلى الوقف الخيري.

ج - الوقف المشترك: هو الذي يجمع بين الوقف الأهلي والوقف الخيري، فيوقف ابتداءً على الذرية، وعلى جهة من جهات الخير في وقت واحد، ويكون للذرية نصيب، ولجهة الخير والبر نصيب ...

المبحث الثاني
إنشاء جامعة القاهرة

لاشك أن الوقف يعتبر من أهم صور الاستثمار الدائمة والمستقرة. وأعظم الوقف ما يتعلق بالعلم وبناء الإنسان؛ ذلك أن بناء الإنسان وتأسيسه تأسيسًا إيمانيًّا علميًّا رافيًا يعتبر الأساس الثابت والعنصر الفعال في بناء الحضارة واستمرارها، ولا يتأتى ذلك إلا بالعلم. وتعتبر المدارس والجامعات من أهم المؤسسات في الدول والأقطار التي تقدم العلم للإنسان. وحين تمتد يد الوقف والبر والإحسان إلى بناء المدارس والمعاهد والجامعات فإنها تكون قد قدمت أعظم خدمة للأمة والبشرية، وأسهمت في نشر نور العلم في بقاع المعمورة. ولا شك -أيضًا- أن انتشار العلم باللغة العربية إنما هو خدمة كبرى لهذه اللغة الشريفة اللطيفة، وخدمة كبرى أيضًا لتاريخنا وازدهار حضارتنا على مر السنين، وتتابع القرون.

ويمكن أن تتعدد صور الوقف في هذا المجال، وهو مجال إنشاء الجامعات، إذ يبدأ من وقف الأراضي الواسعة الصالحة لإنشاء الجامعة، ويمر بعدة مراحل تتعلق بإنشاء المباني التعليمية والمكتبات والمعامل والمرافق الخدمية والإدارية الأخرى، كالمستشفيات والملاعب الرياضية والنوادي وغيرها، وينبغي تجهيزها بأفضل وسائل التجهيز، والتمويل المستمر عليها وتطويرها وصيانتها، ورعاية طلبة العلم الفقراء، والأخذ بيد المعاقين وأصحاب الاحتياجات الخاصة، وتخصيص المنح الدراسية لمستحقيها، وهذا مهم جدًّا؛ "لأن الوقف في الوقت الحاضر لابد من تطويره وتفعيله تنمويًّا، وفق أسس شرعية يراعى فيها الالتزام بالثوابت، والسعي لمواكبة العصر وحاجاته فيما يحقق المصلحة العامة"[٢٠].

ويمكن للوقف في مجال إنشاء الجامعات -أو أي مجال آخر- أن يكون من قِبَلِ شخص واحدٍ، أو يكون من قِبَلِ أشخاص متعددين بشكل جماعي تتكامل فيه الأدوار، وتتوحد فيه الأهداف لتشكل في النهاية وحدة متكاملة تنطلق منها الجامعة، ويزدهر فيها التعليم العالي، في أي قُطر، وتنشط الحركات العلمية والبحثية، وينتشر نور العلم، وترتقي الإنسانية.

ويعتبر إنشاء جامعة القاهرة وتخصيص الأوقاف المناسبة لها من قبل الأميرة فاطمة إسماعيل مجالا جديدًا من مجالات الوقف الخيري، أسهم في محو أمية الشعب المصري، وقضى على مشكلات التخلف والبطالة، بل إنه قاد الشعب إلى نهضة أدبية وفكرية وعلمية واجتماعية واقتصادية، وفتح أعين المصريين على الحضارات الأُخَر، وخاصة الحضارة الأوربية نتيجة إرسال البعثات العلمية إلى الدول الأوربية. وقد أفادت اللغة العربية، وكذلك التاريخ الإسلامي كثيرًا من تلك البعثات، وخاصة في تخصصات الدراسات اللغوية الحديثة، والأدب المقارن، والفلسفة، والدراسات الأدبية والبلاغية، والتربوية، والتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، وكان أساتذة كلية دار العلوم هم فرسان الميدان والرواد الأوائل في هذه الميادين، وعلى سبيل المثال أذكر الأساتذة الدكاترة: إبراهيم أنيس، وتمام حسان، وكمال بشر، وعبد الصبور شاهين، ومحمد غنيمي هلال، والطاهر أحمد مكي، وأبو العلا عفيفي، وأحمد هيكل، ، وأحمد شلبي، وغيرهم كثير...

نشأة جامعة القاهرة وتطورها[٢١]:

مع ازدياد الحركة الوطنية المصرية في أوائل القرن العشرين انبرت نخبة من قادة الفكر والتنوير والعمل الوطني في مصر، ومنهم: محمد عبده، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وقاسم أمين، وسعد زغلول، لتحقيق حلم المصريين في إنشاء جامعة تنهض بالبلاد في شتى مناحي الحياة،

وتكون منارة للفكر الحر، وأساسا للنهضة العلمية، وجسرًا يصل البلاد بمنابع العلم الحديث. ولكن هذا الأمر وجد معارضة من سلطات الاحتلال البريطاني أنذاك، ولكن المصريين تحمسوا للفكرة، وجاهدوا لإخراجها إلى النور، وافتتحت (الجامعة الأهلية) في الحادي العشرين من ديسمبر ١٩٠٨م فى حفل كبير أقيم بقاعة مجلس شورى القوانين حضره الخديوي عباس الثاني، وبعض رجالات الدولة وأعيانها. وفى مساء يوم الافتتاح بدأت الدراسة في الجامعة على هيئة محاضرات كانت تلقى في قاعات متفرقة كان يعلن عنها في الصحف اليومية، كقاعة مجلس شورى القوانين، ونادي المدارس العليا، ودار الجريدة، حتى اتخذت الجامعة لها مكانًا في سراي الخواجة "جناكليس" الذي تشغله الجامعة الأمريكية بالقاهرة حاليا قرب ميدان التحرير في القاهرة. وانتقلت من مكان إلى آخر توفيرًا للنفقات، وأرسلت بعض الطلاب النابهين لإكمال الدراسات العليا في أوربا والتدريس فيها فيما بعد، وكان منهم: طه حسين، ومنصور فهمي، وأحمد ضيف، وغيرهم.

وفي عام ١٩١٧م فكرت الحكومة في إنشاء جامعة حكومية تضم المدارس العليا إليها، واتفقت الحكومة مع إدارة الجامعة الأهلية على الاندماج في الجامعة الجديدة، على أن تكون كلية الآداب نواة لهذه الجامعة. وفى ١١ مارس ١٩٢٥م صدر مرسوم بقانون إنشاء الجامعة الحكومية باسم (الجامعة المصرية) وكانت مكونة من كليات أربع، هي: الآداب، والعلوم، والطب، والحقوق، وفى العام نفسه ضمت مدرسة الصيدلة لكلية الطب.

وفى عام ١٩٢٨م بدأت الجامعة في إنشاء مقار دائمة لها فى موقعها الحالي الذي حصلت عليه من الحكومة تعويضا عن الأرض التي تبرعت بها الأميرة فاطمة بنت الخديوي إسماعيل للجامعة. وفي ٢٣ من مايو عام ١٩٤٠م صدر القانون رقم ٢٧ بتغيير اسم الجامعة المصرية إلى (جامعة فؤاد الأول). وفى ٢٤ من ابريل عام ١٩٤٦م صدر القانون رقم ٣٣ بضم كلية دار العلوم إلى الجامعة. وفى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٥٣ صدر مرسوم بتعديل اسم الجامعة من جامعة فؤاد الأول إلى (جامعة القاهرة).

وحين تُذْكَر جامعة القاهرة يتبادر إلى الذهن الدور المشرِّف للأميرة فاطمة بنت إسماعيل(١٨٥٣م-١٩٢٠م) إحدى بنات الخديوي إسماعيل التي أحبت العمل العام، وحرصت على المساهمة في أعمال الخير، ورعاية الثقافة والعلم. وكان ابنها الأمير عمر طوسون مثلها في ذلك.

وعندما علمت الأميرة فاطمة بالصعوبات التي تعانيها الجامعة المصرية عن طريق طبيبها الخاص محمد علوي باشا (عضو مجلس الجامعة المصرية) بادرت الأميرة بإزالة العثرة المالية للجامعة، فأوقَفَتْ مساحة من أراضيها الزراعية على الجامعة٢٢؛ حتى تجرى ريعها على الجامعة فتضمن بذلك مصدرًا للتمويل، كما تبرعت بنصف جواهرها الثمينة، وستة وعشرين ألف جنيه لتوفر للجامعة سيولة مالية عاجلة، وللإنفاق منها على الطلبة، وقد امتد كرمها إلى منح الجامعة مساحة من الأرض ليقام عليها الحرم الجامعي الحالي في الجيزة، وشاركت في وضع حجر الأساس للجامعة الذي تُوِّج بتوقيع الخديوي، وتوقيعها، وتوقيع الأمير أحمد فؤاد باشا رئيس شرف الجامعة، ثم توقيع مجلس إدارة الجامعة، ولكنها انتقلت إلى رحمة الله قبل أن ترى صرح الجامعة قد شُيِّد، ومنارتها تشع بنور العلم والمعرفة على مصر والوطن العربي والعالم أجمع. وحق على التاريخ أن يحفظ لها هذا الصنيع، ويسجله بحروف من نور على صحائف من ذهب.

وجدير بالذكر أن تصميمات الجامعة الهندسية، ورسوماتها الفنية والمعمارية قد أسندت إلى مهندسين وطنيين مشهود لهم بالخبرة والبراعة، وهم: صابر صبرى باشا، ومحمود فهمى بك، وغيرهما، وقد واظبوا على العمل، تطوعا منهم لخدمة الجامعة، إلى أن أبرزوا رسما على طراز الجامعات الحديثة. وهذا العمل التطوعي يشير إلى نوع جديد من الوقف يمكن استحداثه بأن يوقف المحسن مكتبًا هندسيًّا مثلا لخدمة مثل هذه المشروعات الوطنية أو الوقفية أو الخيرية عمومًا، وبذلك يستفاد من أصحاب الخبرات في الوقف إذا لم تكن لديهم الأموال الكافية لتمويل مشروع وقفي كبير، مثل الجامعات، أو المدارس، أو المستشفيات، أو غير ذلك. فالطبيب يمكنه وقف عيادته بعد موته أو في حياته، والمهندس يوقف مكتبًا هندسيًّا، واللغويُّ يمكنه وقف مكتبٍ للتدقيق اللغوي، أو تحقيق التراث، وهكذا تنتشر المشروعات الخيرية في المجتمع، ويسوده التكافل الاجتماعي، ويخف الضغط المادي عن كاهل الدولة لتهتم بما هو أكبر، كرعاية الجيش، وحفظ الأمن، وتوفير الطعام، وإقامة الطرق والمدن الجديدة، وغير ذلك.

وبعظم أثر جامعة القاهرة حين نعلم أنها أسهمت في تأسيس جامعات أخَرَ من

خلال تجاربها وخبراتها الرائدة، منها: جامعة فاروق الأول سنة ١٩٤٢م (جامعة الإسكندرية حاليًا) التي تكونت في أول أمرها من كليات: الآداب، والحقوق، والطب، والعلوم، والهندسة، والزراعة، والتجارة، بعد أن قضت فترة حضانة مدتها أربع سنوات في رعاية جامعة القاهرة. ولكن مهمة جامعة القاهرة لم تتوقف بقيام جامعة الإسكندرية واستقلالها، بل أدَّتْ دورًا أساسيًّا في إمداد الجامعة الناشئة بالخبرات اللازمة، وأعضاء هيئة التدريس المتميزين. ومن هذه الجامعات: جامعة إبراهيم باشا الكبير سنة ١٩٥٠م (جامعة عين شمس حاليًا)؛ لاستيعاب الزيادة السكانية في القاهرة والمحافظات المجاورة بعد الحرب العالمية الثانية. واستفادت الجامعة الناشئة من خبرات أساتذة جامعة القاهرة كذلك. ومنها أيضًا: جامعة محمد علي باشا الكبير ١٩٥٧م (جامعة أسيوط حاليًا، في صعيد مصر)، وكان قد صدر قرار إنشائها مع قرار إنشاء جامعة إبراهيم باشا الكبير سنة ١٩٥٠م، ولكن كان من الصعب – في ضوء الإمكانات المتاحة – أن يلقى عبء تأسيس جامعتين في وقت واحد على عاتق جامعة القاهرة؛ لذلك استنت الدولة سُنة حميدة عندما بدأت بإعداد أعضاء هيئة التدريس لأول جامعة بصعيد مصر (جنوبيّ مصر)، فأوفدت البعثات إلى الخارج لدراسة الدكتوراه في مختلف التخصصات التي تحتاج إليها الجامعة الجديدة.

والجدير بالذكر أن جامعة القاهرة شاركت فى تأسيس جامعات عربية عديدة، مثل: جامعة الرياض (الملك سعود)، وجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وجامعة بغداد، وجامعة الكويت، وغيرها. وهكذا كانت جامعة القاهرة حجر الزاوية في التعليم الجامعي في مصر والدول الشقيقة في العالم العربي، وقد ارتبطت بالكفاح الوطني من أجل التحرر السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فقد دعَّمَتْ أركان التعليم الجامعي في مصر والعالم العربي بتبنيها للجامعات التي أنشئت في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، ولازالت تؤدى رسالتها في احتضان نواة جامعات أخَر جديدة.

ومما لا ريب فيه أن هذه الجامعات الأربع: جامعة القاهرة، وجامعة الإسكندرية، وجامعة عين شمس، وجامعة أسيوط، بالإضافة إلى جامعة الأزهر، وجامعة دمشق (أنشئت سنة ١٩٠٣م) قد آتين ثمار العلم والمعرفة، ونشرن أضواء الثقافة، ورفعن لواء اللغة العربية خفاقًا عاليًا، ووصلن الماضي بالحاضر، وربطن الشرق بالغرب، وقرنَّ العلم بالعمل، ووجهن التاريخ والحضارة العربية والإسلامية الوجهة الصحيحة. ومعظم ذلك من آثار الوقف الخيري والبر والإحسان. وحقًا ما قاله الشاعر علي الجارم (١٨٨٢م-١٩٤٩م) ابن دار العلوم٢٣:

بالأيادي الحِسان يُمْحَى دُجَى البؤْ
سِ، وتسمو الشعوب نحو الكمالِ
يذهب الفقر والثراء ويبقى
ما بنى الخيِّرون من أعمالِ

مكتبة جامعة القاهرة:

تعتبر الكتب من أهم روافد العلم ومصادر التعلم، وتسهم بقدر كبير في إعانة العلماء والطلبة على انتشار العلم، وتحقيق النهضة الشاملة في البلاد. والتلازم بين الكتب والمكتبات تلازم قوي لا تنفك عراه، ولا تضعف وشائجه؛ "لأن المكتبات هي الأوعية والخزائن التي تحوي الكتب، وتيسر تداولها، وتوصلها إلى المجتمع بأقل وقت وجهد، وتهيئ المكان أو الوسيلة المناسبة للاستفادة منها"٢٤. وقد زخرت المكتبة المركزية بجامعة القاهرة -وفي فروعها، وخاصة في مكتبة كلية دار العلوم، ومكتبة كلية الآداب- بعدد كبير من الكتب في المجالات كافة، وخاصة الكتب التي تتعلق باللغة العربية وعلومها المختلفة، وكذلك كتب التاريخ عامة، والتاريخ الإسلامي خاصة. ومكتبات الكليات في جامعة القاهرة بَنَاتُها، وأثر طيب من آثار وقفها.

ونرجو أن يمتد أثر الوقف الخيري إلى دعم حركة التأليف والترجمة والطباعة والنشر والتسويق، إضافة إلى ما هو متعارف عليه في مجال وقف الكتب وخزائنها في السابق.

والمكتبة المركزية بجامعة القاهرة تعتبر منارة من منارات العلم والمعرفة في مصر، ومنبعًا ثقافيًّا ضخمًا يضم آلاف الكتب والدوريات العربية والأجنبية ورسائل الماجستير والدكتوراه في مختلف التخصصات، وكذلك بعض الوثائق التاريخية، والمخطوطات، وأوراق البردي. والمكتبة تساعد طلبة العلم في جميع المراحل التعليمية من جميع الجامعات المصرية في الحصول على ما يريدونه من كتب أو رسائل علمية أو مراجع عربية وأجنبية. فماذا عن تاريخ إنشائها؟.

بعد إنشاء الجامعة وتنظيم المحاضرات والمناهج فيها، بدأ الأمير

أحمد فؤاد يفكر في إنشاء مكتبة لها، وفي كيفية استثمار علاقاته المتينة بالبيوت المالكة في أوروبا والجمعيات العلمية لتزويد المكتبة بالكتب اللازمة. وجاءت كلمته الشهيرة لتبين موقفه من ذلك: "إنه لا غنى لنا عن مكتبة جامعية هي لنا بمثابة المعامل لكلية العلوم ولا يخفى إن مواردنا لا تزال ضئيلة فليس لنا إذاً إلا الدعاية لهذا المشروع"٢٥.

وفي أبريل عام ١٩٣١ شيدت الجامعة مكتبتها المركزية داخل حرَم الجامعة، وافتتحت رسمياً في ٢٧ من فبراير سنة ١٩٣٢م، واتسمت المكتبة المركزية بجامعة القاهرة منذ تأسيسها بسمات خاصة، وظروف ربما لم تتح لغيرها، إذ توالت عليها الهبات والهدايا من الهيئات العلمية في الداخل والخارج، وتلقت مجموعات كبيرة وقيمة من الكتب المطبوعة والمخطوطات والدوريات العربية والأجنبية والخرائط والنقود الأثرية والمعاجم والموسوعات والمراجع العامة والمتخصصة، وحصلت على مجموعات من الكتب النفيسة والنادرة ذات القيمة العلمية، وكان ذلك عن طريق الإهداء أو الشراء، ومن المجموعات الثمينة والمتميزة التي اقتنتها المكتبة المركزية: (مجموعة الأمير إبراهيم حلمي)، وهي مجموعة تاريخية لها قيمتها الخاصة لكل باحث في تاريخ مصر والسودان ووادي النيل، بل وتاريخ الشرق أجمع، وتضم الكثير من المصادر النادرة ذات التجليد الفاخر. و(مجموعة الأمير كمال الدين حسين) التي أهديت إلى الجامعة، وأغلبها في الأدب والجغرافيا والرحلات. كما أثْرَتْ رصيدَها بشراء مجموعات العلماء المستشرقين كمجموعات: العالم المستشرق "زيبولد"، وأستاذ الآثار "بونكر" والدكتور "ماكس ماير هوف" الذي تتميز مجموعته بما تضمه من المخطوطات العربية في تاريخ الطب والعلوم الطبية، ومجموعة المرحوم أحمد طلعت التي تحتوى على عدد كبير من المخطوطات العربية والفارسية والتركية، ومجموعة الدكتور محمد عسكر التي تشتمل على الكثير من المراجع العربية الأساسية كالمعاجم وكتب الطب والتاريخ والآداب والعلوم الدينية، كما أُهديت للمكتبة مجموعات عديدة ومؤلفات نفيسة باللغات المختلفة، من أشهرها كتاب (وصف مصر) الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية.

ولما ضاقت المكتبة بما فيها من كنوز معرفية وافق مجلس جامعة القاهرة في ٣١ يوليو ١٩٩٦م على إنشاء المكتبة الجديدة، وعلى البدء في اتخاذ الإجراءات التنفيذية الخاصة بذلك. وفى ٢٩ يناير ٢٠٠٨م افتُتِحَت المكتبة المركزية الجديدة، وقد وُجهت دعوة لخريجي الجامعة في مصر والعالم العربي للتبرع لاستكمال المشروعات التي تقوم بها الجامعة مثل مركز التوثيق والمخطوطات، وغير ذلك.

جامعة القاهرة ونشر التراث العربي:

يشير المحقق الكبير المرحوم الدكتور محمود الطناحي٢٦ (١٣٥٣ هـ - ١٤١٩ هـ/ ١٩٣٥ - ١٩٩٩م) إلى أن أقدم الهيئات العلمية التي عُنِيتْ بنشر التراث في مصر هي جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول سابقًا). ومن أقدم منشوراتها كتاب الذخيرة في علم الطب، لثابت بن قرة، تحقيق جورجي صبحي، سنة ١٩٢٨م. ومنتخب جامع المفردات، لأحمد بن محمد الغافقي، تحقيق ماكس مايرهوف (مستشرق وطبيب ألماني)، سنة ١٩٥٤م. ورسائل فلسفية، لأبي بكر الرازي، تحقيق المستشرق الألماني باول كراوس. والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام، بإشراف د. طه حسين، والمستشرق ليفي بروفنسال. ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، للمستشرق زامباور، سنة ١٩٥١م، بإشراف عالم الآثار الإسلامية الكبير الدكتور زكي محمد حسن عميد كلية الآداب.

وقد استقبلت جامعة القاهرة -جامعة فؤاد الأول آنذاك- كثيرًا من أعلام المستشرقين للتدريس فيها، والتزود من مخطوطات القاهرة والإسكندرية، ومن هؤلاء المستشرق الألماني "برجشتراسر" (ت ١٩٣٣م) الذي ألقى محاضرات على طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية حول مناهج تحقيق التراث ونشره، وقد بهرت هذه المحاضرات كثيرًا من الباحثين وطلبة العلم، وأثارت حمية بعض المهتمين بالتراث، فكثفوا الجهود، وواصلوا الليل بالنهار في عمل دءوب لخدمة التراث العربي والإسلامي. وكان لتحقيق التراث أثره الطيب، وانعكاساته الباهرة على اللغة العربية، والتاريخ الإسلامي.

وقد اهتمت مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة بنشر بعض نصوص التراث، ومنها: نقط العروس، لابن حزم، تحقيق د. شوقي ضيف. وقد حقق د. شوقي ضيف بعض كتب التراث الأخرى، منها: كتاب الردّ على النحاة لابن مضاء القرطبي ، والسبعة في القراءات، لابن مجاهد. والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد

(مجلدان)، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر، ورسائل الصاحب بن عباد، والنشر في القراءات العشر.

وقد حمل الأفذاذ من رجال دار العلوم وعلمائها لواء تحقيق التراث، ومنهم: عبد السلام هارون، والسيد أحمد صقر، وإبراهيم الإبياري، وغيرهم. وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله.

المبحث الثالث
كلية دار العلوم حاضنة اللغة العربية وحافظة التاريخ الإسلامي

أسس علي مبارك دار العلوم في سنة ١٨٧١م بأمر من الخديوي إسماعيل ليتخصص طلابها في العلوم العربية، والدينية، ويأخذوا بقسط من الثقافة الحديثة، وليعملوا بعد تخرجهم في تدريس اللغة العربية والدين الإسلامي في المدارس الحكومية. وقد أدت دار العلوم على مدى تاريخها الطويل خدمة جليلة وفضلا عظيمًا وأثرًا بالغًا في ترقية اللغة العربية، ونهضة الأدب، وإشاعة الفصحى على ألسنة خريجيها الذين عملوا في التعليم والتأليف والكتابة والشعر والخطابة منذ نشأتها إلى أن أُلحِقَت بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٦م٢٧.

وفي كلية دار العلوم سبعة أقسام بمثابة سبع جواهر، هي: قسم النحو والصرف والعروض، وقسم علم اللغة واللغات الشرقية (العبرية والفارسية)، وقسم الدراسات الأدبية، وقسم البلاغة العربية والنقد الأدبي، وقسم الشريعة الإسلامية، وقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، وقسم الفلسفة الإسلامية والتصوف. ويدرس الطالب مقررات هذه الأقسام جميعًا طوال سنوات الدراسة، وهي أربع سنوات، فإذا أراد أن يتخصص في الدراسات العليا فإنه يدرس في قسم واحد من هذه الأقسام. وبهذا تُخَرِّج دار العلوم طالبًا موسوعيًّا في علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية.

وأريد في عجالة سريعة أن أذكر بعض الأعلام لكل قسم، وأشهر كُتُبهم:

١ - فى مجال النحوالعربي: كَتَبَ إبراهيم مصطفى: إحياء النحو. وعباس حسن: النحو الوافي. وعلى النجدي ناصف: تاريخ النحو. وعبد العليم إبراهيم: النحو الوظيفى. ومحمد عيد: النحو المُصفَّى، وأصول النحو العربي. ومحمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة، وبناء الجملة العربية ....

٢ - فى مجال علم اللغة الحديث: كَتَبَ إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ودلالة الألفاظ، ومن أسرار اللغة. وتمام حسان: مناهج البحث في اللغة، واللغة العربية معناها ومبناها. وكمال بشر: الأصوات العربية، وعلم اللغة الاجتماعي. وعبد الصبور شاهين: القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، والعربية لغة العلوم والتقنية. وأحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب، ودراسة الصوت اللغوي. والسعيد بدوي: مستويات العربية المعاصرة.

٣ - في مجال تاريخ الأدب: كَتَبَ عمر الدسوقي: في الأدب الحديث. وأحمد الحوفي: الوطنية في شعر شوقي. وعلي الجندي: شعر الحرب في العصر الجاهلي. وأحمد هيكل: الأدب الأندلسي. وعبد الحكيم بلبع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه. والطاهر مكى: مصادر الأدب، وامرؤ القيس. وحمدى السكوت: سلسلة أعلام الأدب الحديث في مصر. ومحمد فتوح أحمد: الرمزية في الشعر العربي المعاصر. وعبد اللطيف عبد الحليم: شعراء ما بعد الديوان.

٤ - في مجال البلاغة والنقد الأدبي: كَتَبَ أحمد بدوى: أصول النقد العربي عند العرب. وحفني شرف: البلاغة العربية بين النظرية والتطبيق. وبدوى طبانة: معجم البلاغة العربية. ومحمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، والأدب المقارن. وعبد الحكيم حسان: النظرية الرومانتيكية فى الشعر. ومحمود الربيعي: في نقد الشعر، وعلي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر.

٥ - فى مجال الشريعة الإسلامية: كَتَبَ على حسب الله: أصول التشريع الإسلامي. ومصطفى زيد: النسخ في القرآن الكريم. ومحمد بلتاجي حسن: عمر بن الخطاب ومنهجه في التشريع. ومحمد سراج: النظام المالي في الفقه الإسلامي. وأحمد يوسف: الفقه الإسلامي. ومحمد غنايم: في التشريع الإسلامي.

٦ - فى مجال الفلسفة الإسلامية: كَتَبَ إبراهيم اللبان: الفلسفة والمجتمع الإسلامي. وأبو العلا عفيفي: فلسفة محيي الدين بن عربي (بالإنجليزية)، ومحمود قاسم:

نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكوينى، والمنطق الحديث ومناهج البحث. ومحمد كمال جعفر: التصوف: طريقا وتجربة ومذهبا، وحامد طاهر: الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث.

٧ - فى مجال التاريخ الإسلامى: كَتَبَ محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية والإسلامية، والخراج في الدولة الإسلامية. وأحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، وموسوعة الحضارة الإسلامية. وعلى حبيبة: عصر الرسالة، وخلافة الراشدين، والمسلمون والصليبيون.

وكما أسهمت جامعة القاهرة في تأسيس الجامعات العربية الأخرى، فإن دار العلوم من خلال أساتذتها قد شاركت في تدريس اللغة العربية والأدب العربي، والفلسفة الإسلامية، والشريعة الإسلامية، والتاريخ الإسلامي في مؤسسات تعليمية ناشئة. ومن أبرز هؤلاء الأساتذة: حفني ناصف، ومحمد المهدي، وأحمد ضيف للأدب العربي، وسلطان محمد للفلسفة والأخلاق الإسلامية، ومحمد الخضري للتاريخ الإسلامي، وغيرهم ممن كانوا دائمين أو زائرين، وقد تركوا من الآثار العلمية ما كان عبارة عن الخطوات الأولى فى مسيرة الدراسات الجامعية. وعندما تحولت الجامعة الأهلية إلى حكومية سنة ١٩٢٥، وضمت لها كلية الحقوق، استعانت هذه الكلية بعدد من أعلام دار العلوم في مجال الدراسات الشرعية، ومنهم: أحمد أبو الفتح، ومحمد زين، وأحمد إبراهيم. أما كلية الآداب فقد استعانت بطائفة من أساتذة دار العلوم – وخاصة الذين درسوا في أوروبا – للمشاركة في مرحلة بنائها، ومنهم: إبراهيم مصطفى، وطه إبراهيم، وأحمد الشايب، وعبد الوهاب حموده، ومصطفى السقا، بجامعة فؤاد الأول (القاهرة)، ومحمد خلف الله، وإبراهيم اللبان، وعبد السلام هارون، فى جامعة فاروق (الاسكندرية). وهكذا نرى أن دار العلوم قد أسهمت بدور رئيس فى تحديث التعليم وخدمة اللغة العربية٢٨.

دار العلوم والشعر:

يقول سعد اللبان، خريج دار العلوم، ووزير المعارف في بداية عهد الثورة: " لقد اضطلعت دار العلوم برسالتها العلمية والأدبية في مستهل هذه النهضة، وحملت مهمة البعث والتجديد في تاريخ الأدب العربي. فبدأ رجالها بالتنقيب في ثنايا القديم وأطلاله، وجمعوا من كشوفهم هنا وهناك مادة شادوا منها صروح هذا الجديد، فكان يغريهم دائما الاتجاه إلى الجديد، وكان التجديد والتطوير واضحا في كل ما صاغوه من ذلك القديم.. وهكذا كان البعث كامنًا في رسالة دار العلوم "٢٩.

وكانت دار العلوم أرضًا خصبة للشعر، نما فيها وترعرع، واستوى على سوقه، وواكبت النهضة الحضارية للشعر العربي منذ مرحلة الإحياء والبعث إلى أحدث مرحلة عصرية من مراحله. ونبغ فيها شعراء عمالقة، ومنهم علي الجارم (١٨٨٢ - ١٩٤٩م) الذي قال عنه العقاد٣٠:"إن الجارم ركن من أركان مدرسة شعرية تستحق الآن أن تعرف بملامحها، وأن تستقل بعنوانها، فلا تلتبس بمدرسة أخرى تنسب إلى عَلَم من أعلام الشعر المخضرمين بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين. إنها مدرسة يجوز لنا أن نسميها بمدرسة (دار العلوم)، ونعجب لأنها لم تتميز بهذه الميزة الواضحة، وهي أدل عليها من كل جامعة أخرى تفرقها ولا تقارب بين أوصالها. فإذا سمينا أركان هذه المدرسة الثلاثة، وهم: حفني ناصف، ومحمد عبد المطلب، وعلي الجارم بترتيب السن أو الجيل، فمن اليسير جدًّا أن نلمس وجوه الشبه بين كل منهم وصاحبيه ..."

ويواصل العقاد حديثه قائلا: "الدرعميُّ لغويٌّ عربيٌّ سلفيٌّ عصريٌّ، ولكن على منهج فريد في بابه بين مناهج المعاهد السلفية والمدارس الإفرنجية، وبين مناهج المحافظة والتجديد، ومناهج الابتداع والتقليد"٣١.

لقد أنجبت دار العلوم كثيرًا من الشعراء الذين أنتجوا أرقى دواوين الشعر العربي، ومنهم: حفني ناصف، وعلي الجارم، وعلي الجندي، ومحمود حسن إسماعيل، ومحمود غنيم، والعوضي الوكيل، وطاهر أبو فاشا، وفاروق شوشة، وعبده بدوي، وأحمد مخيمر، وأحمد بخيت، والحساني حسن عبد الله، وغيرهم كثير .... . كما أن أبناء دار العلوم أبدعوا في مجال القصة، والرواية، والمسرحية، وغيرها من فنون الأدب، ولكن المجال لا يسمح بتفصيل ذلك.

دار العلوم وتحقيق التراث:

كان لجهود أبناء دار العلوم في ميدان تحقيق التراث أثر واضح في إصدار عدد كبير من أمهات التراث العربي والإسلامي إصدارًا علميًّا حديثًا، يعتمد على مقابلة النسخ المخطوطة، وتخريج ما بها من نقول، مع التعريف بأعلامها، وأماكنها،

وشرح غامضها، ووضع الفهارس الكاشفة لها، ومن أهم النماذج التي تمت في هذا الصدد: تحقيق مقدمة ابن خلدون لعلى عبد الواحد وافى، وكُتُب الجاحظ: الحيوان، والبيان والتبيين، والرسائل لعبد السلام هارون، وديوان طرفة بن العبد لعلى الجندي، وكتاب المحتسب لابن جني الذي حققه على النجدي ناصف، وطبقات الشافعية الذي حققه كل من محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، ومناهج الأدلة لابن رشد الذي حققه محمود قاسم، وفصوص الحكم لابن عربي الذي حققه وشرحه أبو العلا عفيفي، واللمع لابن جني الذي حققه حسين شرف، وديوان الشماخ، واشتقاق الأسماء اللذين حققهما صلاح الدين الهادي، وغاية المرام في علم الكلام للآمدي الذي حققه حسن الشافعي، وتفسير مقاتل بن سليمان، الذي حققه عبد الله شحاته .. ويمكن أن تطول هذه القائمة لو ذهبنا نتتبع ما قام به أبناء دار العلوم في ميدان تحقيق المخطوطات، ونكتفي بالإشارة إلى أن عددا من الأسماء التي تخصص أصحابها في هذا الميدان قد حققت سمعة عالمية، وفى مقدمتهم: عبد السلام هارون، وإبراهيم الإبيارى٣٢. ولا تزال كلية دار العلوم بجامعة القاهرة مستمرة في تقديم خدماتها الجليلة للغتنا العربية وذلك من خلال إنشاء مركز التدريب اللغوي لجامعة القاهرة بكلية دار العلوم، والذي يهتم بكل ما له علاقة بالتدريب اللغوي، وتنمية المهارات اللغوية، وكذلك مساعدة الجهات والأفراد للارتقاء بمستوى الأداء اللغوي وصولاً إلى الصحة والصواب وجماليات الأداء نطقاً وكتابة، وتقديم دورات عن الأخطاء اللغوية الشائعة (للإعلاميين: صحافة –إذاعة– تليفزيون، وغيرهم)، ودورات التصحيح اللغوي، والتراث العربي وقراءته... .

كذلك –أيضًا– تعاون كلية دار العلوم بجامعة القاهرة مع مؤسسة جائزة الملك عبد العزيز آل سعود للإبداع الشعري لعقد دورات تدريبية مجانية في جميع فروع اللغة العربية سواء في مهارات اللغة العربية، وقواعد الكتابة والإملاء وفنون الإعراب، أو القواعد النحوية والصرفية، أو الأخطاء الشائعة، أو التذوق الشعري. وذلك كله بهدف الارتقاء بلغتنا التي هي من أهم مكونات هويتنا العربية الإسلامية.

وأشير في نهاية هذا المبحث إلى أن كلية الآداب في جامعة القاهرة قد قدمت خدمات جليلة للغة العربية من خلال قسم اللغة العربية فيها، ومن أبرز خريجي هذ القسم: طه حسين، وشوقي ضيف، وحسين نصار، وغيرهم. وكانوا علامات مضيئة في البحث اللغوي والأدبي.

الخاتمة والتوصيات

لقد جسّم هذا البحث – على صغره – الملامح العامة لموضوعه، وهو: (أَوْقَافُ النِّسَاءِ وَأَثَرُهَا فِي نَهْضَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالتَّارِيخِ الإِسْلامِيِّ)، وحاصل ما أفضى بنا إليه هذا البحث عدة ملاحظات أو نتائج، منها:

١ – يعتبر ميدان التعليم هو أعظم ميدان لاستثمار الأوقاف الخيرية؛ إذ إن التعليم هو مصدر الرقي والتقدم والتنوير في كل المجتمعات.

٢ – إسهامات النساء في مجال الوقف كثيرة ومتنوعة، وقد كان لفاطمة بنت إسماعيل اليد الطولى في ذلك في التبرع ووقف الأراضي والأموال لإنشاء جامعة القاهرة.

٣ – حثت الشريعة الإسلامية على أهمية الوقف الخيري، ووجهت إلى تفعيله في المجتمع الإسلامي منذ عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم– والصحابة رضوان الله عليهم حتى يومنا هذا .

٤ – يمتد الأثر الخيري لوقف جامعة القاهرة إلى أنها أسهمت في إنشاء جامعات أخرى تنشر العلم والنور في المجتمع، وكلها بلا شك أسهمت في خدمة اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، وغيرهما.

٥ – للأوقاف الخيرية ميادين جديدة في مجال التعليم، وخدمة اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، منها: وقف الكتب، وإنشاء المكتبات، وتحقيق التراث....

٦ – كانت دار العلوم في جامعة القاهرة خير حاضنة للغة العربية، وأفضل حافظة للتاريخ الإسلامي بجهود أساتذتها وطلابها.

وتوصي هذه الدراسة بضرورة تفعيل دور الوقف الخيري في وقتنا الحاضر في الدول العربية والإسلامية؛ لخدمة الهُوِيّة العربية الإسلامية من خلال خدمة اللغة العربية والتاريخ الإسلامي؛ وأيضًا الإسهام في مشاريع التنمية في هذه الدول على المستويات النفعية كافة في إطار إسلامي صحيح، وخاصة في ظل الأزمات الاقتصادية والقلق السياسي لبعض هذه الدول وغيرها؛ فالوقف الخيري يستطيع: تخفيف الأعباء المالية عن كاهلها، وتحقيق العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي المأمول.

الهوامش والمصادر والمراجع

١- معالم الحضارة الإسلامية، د. سلامة البلوي، دار البشير، الإمارات العربية المتحدة، ط/ ١، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م، ص: ١٤٩. وانظر: المحلى بالآثار، لابن حزم الأندلسي (أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد القرطبي الظاهري، ت ٤٥٦هـ)، دار الفكر - بيروت(د.ط، د.ت)، ج٨، ص: ١٤٩- ١٦١.

٢- حاشية الأمير على شرح شذور الذهب، طبع ونشر عبد الحميد أحمد حنفي، بشارع المشهد الحسيني، القاهرة، مصر، (د. ت): ص٤.

٣- انظر مادة (وقف) في:

- مجمل اللغة، لابن فارس، تح. زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٤، ص: ٩٣٤.
- أساس البلاغة، للزمخشري، دار صادر، بيروت، ص: ٦٨٦.
- لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف، مصر، ط٦، ج٦، ص:٤٨.
- معجم التعريفات، للجرجاني: ٢١٢. (ط. دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠٠٤م).

٤- مما يؤيد ذلك أن أ. محمد فريد وجدي حين تحدث عن مصطلح (الوقف) في (دائرة معارف القرن العشرين) تحدث عنه من الناحية الفقهية والقانونية... انظر: مج ١١/ص٧٩٥-٨٠٤ (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١).

٥- انظر: الشرح الكبير على متن المقنع، لابن قدامة المقدسي (ت ٦٨٢هـ)، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، ج ٦، ص: ١٨٩، و١٩١. والوقف، تأليف عبد الجليل عبد الرحمن عشوب (من علماء مدرسة القضاء الشرعي)، ط١، ١٣٣٣هـ/١٩١٥م، طبع بمطبعة المعاهد الدينية بدرب الأتراك بمنطقة الأزهر الشريف بمصر، ص٧. ومحاضرات في الوقف، محمد أبو زهرة، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، مصر، ١٩٥٩م، ص: ٤٧. وانظر: التعريفات للجرجاني، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٩٩٨م: ص٣٢٨.

٦- انظر: صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم)، للإمام مسلم (مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، ت ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان (د.ت)، ج٣، ص: ١٢٥٥. كتاب الوَصِيَّة، بَابُ مَا يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنَ الثَّوَابِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، حديث رقم: ١٤. ومسند الإمام أحمد: لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط/١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ج ١٤، ص: ٤٣٨. حديث رقم: ٨٨٤٤.

٧- انظر: مسند الإمام أحمد، سابق، ج ٨، ص: ٢١٧-٢١٨. حديث رقم: ٤٦٠٨. و صحيح مسلم، سابق، ج٣، ص: ١٢٥٥. كتاب الوَصِيَّة، بَابُ الوَقْف، حديث رقم: ١٥.

٨- انظر: معالم الحضارة الإسلامية ، سابق، ص١٤٨. وأثر الاجتهاد في تطور أحكام الوقف، محمود أحمد أبو ليل، دراسة رقم (ب) مقدمة لندوة الوقف الإسلامي (٦-٧/١٢/١٩٩٧م) التي نظمتها كلية الشريعة والقانون بجامعة الإمارات العربية المتحدة، ص:٤.

٩- انظر: أحكام الأوقاف، أبي بكر أحمد بن عمرو الشيباني المعروف بالخصاف (ت٢٦١هـ)، ديوان عموم الأوقاف المصرية، ط١، ١٣٢٢هـ /١٦٠٤م، ص:١- ٤.

١٠- سبق تخريجه.

١١- انظر: أحكام الأوقاف، سابق، ص: ٥، ٧. ومحاضرات في الوقف، سابق، ص: ٢٢٣ ما بعدها.

١٢- انظر: فتح القدير، لابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي (ت ٨٦١هـ/١٤٥٧م)، دار الفكر، ج/ ٦، ص:٢٠٧.

١٣- الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، محمد علي الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، مج: ١، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص:٢٣٥.

١٤- انظر: معالم الحضارة الإسلامية، سابق، ص:١٥٦.

١٥- انظر: معالم الحضارة الإسلامية، سابق، ص:١٦١.

١٦- انظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، لعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي (ت ٩٢٨هـ)، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ج/٢، ص:١٠١. ومعالم الحضارة الإسلامية، سابق، ص:١٦٠-١٦٣.

١٧- انظر: معالم الحضارة الإسلامية، سابق، ص:١٦٤ وما بعدها.

١٨- انظر: معالم الحضارة الإسلامية، سابق، ص:١٦٩ وما بعدها.

١٩- انظر: الشرح الكبير على متن المقنع، سابق، ج ٦، ص: ١٩٢. والوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، د. محمد بن أحمد بن صالح الصالح، (بدون دار النشر أو بلد النشر)، ط/ ١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص: ٥٣ وما بعدها. والوقف والمجتمع: نماذج وتطبيقات من التاريخ الإسلامي، د. يحيى محمود بن جنيد الساعاتي، كتاب الرياض، يصدر عن مؤسسة اليمامة الصحفية، ع ٣٩، مارس ١٩٩٧م، ص: ١٢-١٤. والوقف وأثره في تنمية موارد الجامعات، د. سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص: ١٥١ وما بعدها. وأحكام الوصايا والأوقاف، محمد مصطفى شلبي، مطبعة دار التأليف بالقاهرة، ط/ ٣، ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، ص: ٣٤٨. والوقف الإسلامي: تطوره، إدارته، تنميته، د. منذر قحف، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان/ دار الفكر، دمشق، سورية، ط/ ٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص: ١١٤.

٢٠- انظر: الوقف وأثره في تنمية موارد الجامعات، سابق، ٣٠٨.

٢١- انظر: http://cu.edu.eg/ar/page.php?pg تاريخ التصفح ٢٠١٦/١/٢٦م . وانظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/ ٨، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص: ٣١٣-٣١٤.

٢٢- أوقفت الأميرة فاطمة إسماعيل ستة أفدنة خصتها لبناء دار جديدة للجامعة، هذا بخلاف ٦٦١ فدانا من أجود الأراضي الزراعية بمديرية الدقهلية، من ضمن ٣٣٥٧ فدانا خصصتها للبر والإحسان، وجعلت للجامعة من صافي ريعها (ربع ٣٣٥٧ فدانا، و١٤ قيراطا، و١٤ سهمًا) ٤٠٪ بعد خصم استحقاقات ومرتبات يبلغ مجموعها ٥٢٣٩ جنيها كل سنة، وقدر إيراد هذه الوقفية بميزانية الجامعة بمبلغ ٤٠٠٠ جنيها سنويا.

٢٣- ديوان علي الجارم، للشاعر علي الجارم، دار الشروق، القاهرة، ط/ ٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج ١، ص:٦١.

٢٤- انظر: الوقف وأثره في تنمية موارد الجامعات، سابق، ٣٢١.

٢٥- انظر: http://www.cl.cu.edu.eg/?page___id=٣٥ ، تاريخ التصفح: ٢٠١٦/١/١١م.

٢٦- انظر: مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/ ١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص: ١٢٢ وما بعدها.

٢٧- انظر: تاريخ الأدب العربي، للزيات، سابق، ص: ٣١٢.

٢٨- انظر: http://www.hamedtaher.com الثلاثاء ٢٠١٥/٩/٢٣م

٢٩- انظر: http://www.hamedtaher.com الثلاثاء ٢٠١٥/٩/٢٣م .

٣٠- انظر: مقدمة ديوان علي الجارم التي كتبها العقاد، ص: ٨.

٣١- انظر: مقدمة ديوان علي الجارم التي كتبها العقاد، ص: ٩.

٣٢- انظر: انظر: http://www.hamedtaher.com الثلاثاء ٢٠١٥/٩/٢٣م .